الواقع الثقافي في السودان : مدخل تحليلي ورؤية مستقبلية(*)

أ.د. حسن مكي محمد أحمد (**)

مستخلص:

تتناول هذه الورقة الواقع الثقافي في السودان – مدخل تحليلي ورؤية مستقبلية ، وهي تبدأ بفهم معين لمصطلح الثقافة وتستعرض من هو السوداني حيث اوضحت أن السكان في السودان هجين ذو و ثقافات متباينة وتأثرت بالديانات الإبراهيمية . وكذلك استعرضت الورقة الخريطة الثقافية والدينية للسودان وهي لازالت تقوم علي الولاءات الأولية التي أساسها القبيلة والعشيرة وا ٍن خفف التدين من حدة رابط القبيلة والعشيرة ، يسود فيهم اللسان العربي والإنتماء الإسلامي . وكذلك تناول البحث مستقبل الثقافة في السودان والتي أوضحت أن حركة الثقافة الإسلامية العربية يزداد عودها كلمات مفتاحية : الثقافة في السودان ، الخريطة الثقافية الخريطة الدينية ، القبلية .

Abstract

This research tackles the issue of the actual state of the Sudanese culture. It starts with giving an specific definition to the concept of culture, the paper came out with the fact that the Sudanese are heterogonous, and have different cultures. The paper also showed the cultural and religious map of Sudan, that still based on elementary

---

* ندوة أسئلة الثقافة في العالم العربي- مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية الدار البيضاء

** مدير جامعة إفريقيا العالمية - السودان

allegiances and loyalty which based on the tribalism and kinship, the Arabic language and Islam is dominant in the Sudan. The paper also talks about the future of culture in Sudan, which showed that the Islamic and Arabic movement is strengthen
Key-words: culture in Sudan, religion in Sudan, Tribes in Sudan.

مقدمة :

تناولت هذه الدراسة فهما معينا لمصطلح الثقافة أو مفهوم الثقافة ،فبالنسبة لما اجرينا النقاش عنه هنا فإن الثقافة تعني سبل كسب العيش ، أو بالأخرى الرؤية الروحية والفكرية لسبل كسب العيش وما فيها من ترقية للأوضاع.

ولتفسير هذا التعريف يمكن أن نسوق أنموذجا لطرائق حياة السودانيين، فالسودانيون فيهم من لا يأكل الخنزير ، لأن مرجعيته الدينية تمنعه من ذلك ،ومنهم من يأكله ، لأن مرجعياته الروحية لا تحول بينه وبين ذلك، ينطبق هذا أيضا على تعاطي الخمر فمن السودانيين من تبيح له ثقافته وتقاليده وسبل كسب عيشه تناول الخمور، وبالطبع كثير من أهل البلاد يمتنع عن ذلك لأسباب دينية،ولعله من نافلة القول أن هناك من يشربها ،وإن كان من المسلمين ، وقد عد نفسه من الآثمين.الثقافة هنا بمعناها الواسع واستنادا على أنها الأداة التي تشكل موقف السوداني من الحياة والبقاء والاستمرار في العيش.

من هو السوداني:

هذا سؤال مركب لأن السودان يسكنه شعب هجين ذو ثقافات متباينة ، وحظوظ من التمدن والحضارة متفاوتة، فإذا نظرنا في منطقة شمال السودان على سبيل المثال نلاحظ أنه أكثر تمدنا من الوسط والشرق والغرب والجنوب ، وربما كان السبب هنا ارتباط الشمال بالنيل ومن ثم مصر وإلى حد ما ثقافة البحر الأحمر ، وقد ظهرت في الشمال حضارات قديمة منها ما هو نسخة مستمدة من

الحضارة الفرعونية ، ومنها ما هو مستمد من حضارة أكسوم الأثيوبية ومنها ماهو نتاج لتفاعلات الداخل مثل حضارة كرمة ونبتة ومروي، واستخدم أهل الشمال الأبجديات الهيروغلوفية والقبطية واليونانية للكتابة إلى أن نجحوا في اختراع بأجديتهم و أصبحت لهم لغة مكتوبة وهي اللغة المروية بحرفها المروي.

كما أن هذه الحضارات تأثرت بالديانات الإبراهيمية(اليهودية، والمسيحية ،والإسلام)،كما كانت بحيرة لغوية تفاعلت فيها اللغات البجاوية والنوبية واليونانية والرومانية والعربية ، كما أن أهلها أسلموا قبل أن يستعربوا ، بمعنى أنهم حافظوا على لسانهم النوبي بمختلف طبعاته، بعد دخولهم الإسلام ،ولم يظهر استعرابهم إلا في المئين الأخيرة ، وقد اختلف الوضع في جنوب السودان بشكل كلي حيث لم يكن هناك تواصل مع العالم الخارجي نسبة لحاجز المستنقعات والحشائش والغابات، وحاجز المرض ، وحاجز الأمطار ، وحاجز اللغات، والحيوانات المفترسة وغيرها، وظل إنسان تلك المناطق يصارع الطبيعة بطريقته الخاصة وتباينت سبل كسب العيش في هذه المنطقة فبعضهم اعتمد الرعي ، وبعضهم اعتمد على التقاط الثمار . ولم يعرف أهل هذه المنطقة فكرة الدولة وهي فكرة غربية كما هو معلوم وإن وجدت في السودان الشمالي،أو وردت عبر الكنيسة أو المستعمر ، و أهل الجنوب لا يعرفون إلا القبيلة ، وكل قبيلة لها لغتها الخاصة كما أنهم لم يعرفوا حتى الملابس ، وبعضهم لم يمتلك فكرة دفن الموتى وهؤلاء يتركون أمواتهم فريسة للوحوش والسباع،وإذا كان أصحاب الحضارات في الشمال يعبرون عن الحزن وفقد الأعزاء بالتوجه الروحي والصلوات ، فأهل الجنوب يستقبلون الموت بالرقص وتعاطي الخمر والسكر ، إذن هذان نموذجان لمفهومين مختلفين لمرجعيات التعاطي مع الحياة، وهناك نموذج جنوب النيل الأزرق حيث المثلث الثقافي الذي تتفاعل فيه ثقافات الشمال مع الثقافات الإثيوبية ومع ثقافات جنوب

السودان ، وحيث تتعايش الديانات الإفريقية والطقوس الإفريقية جنبا إلى جنب مع الإسلام بتنزلاته المختلفة بالإضافة إلى الدعوات التنصيرية ورياح الثقافة الحديثة.

أما شرق السودان ومع غلبة الثقافة الإسلامية إلا أن اللسان القديم مايزال هو اللسان الأقوى في التواصل الاجتماعي ، بينما تظل العربية هي لغة النخب في تعاطيها مع الشمال كما أن سبل كسب العيش تختلف حيث نجد مثلاً بعض أهل الشرق لايأكلون الأسماك علما بأنهم يعيشون على سواحل البحر الأحمر، ويقتاتون العجوة والقهوة وألبان جمالهم، ومع إسلامهم فإن النهب لم يكن من المحرمات وهذه الأخيرة عادة شائعة بين عدد من شعوب السودان فشعب المورلي في جنوب السودان لايعدون الرجل فارسا إذا لم ينهب مواشي غيره بل إن ساعة نهبه لمواشي غيره هي ساعة إعلان رجولته ، وكذلك الحال في بعض نواحي جبال النوبا فالثقافة لها مرجعيات قديمة فإذا كان الناس في الشمال يصلون من أجل المطر لله الواحد الأحد صلاة الاستسقاء فإنهم في عدد من نواحي السودان يتوسلون بالكجور والسحر لنزول المطر وإذا كانت الثقافة الإسلامية حرمت زواج المحارم وتمثل الناس ذلك في شمال السودان وغربه وشرقه ، إلا أنه في الجنوب يفوز الابن الأكبر بكل نساء أبيه باستثناء أمه المباشرة ، ولذلك فإن الثقافة بتجلياتها المختلفة تشكل مفاهيم سبل كسب العيش ومفاهيم التعاطي مع الحياة ، مما جعل السودان متعدد الثقافات ، متعدد الخصوصيات ،متعدد الرؤى والمفاهيم ، ولعل هذه تمثل خلفية مأزومية السودان التي جاءت متغيرات من ذات هذه المأزومية حيث نفخت فيها الكنيسة العالمية بمختلف مدارسها ونحلها ، عن طريق التعليم والعمل الخيري وكتابة اللغات والإغاثة ، ثم جاء الاستعمار بثقافته المتواصلة مع ثقافة الكنيسة وأصبح هناك تحالف مباشر ومقنن وكلاهما مثل دور المدافع عن الثقافة المحلية في وجه الثقافة الإسلامية ، وكلاهما مثل دور المخلص

لشعوب السودان من التخلف والثقافة الإسلامية باعتبار أن الثقافة الإسلامية إقصائية تريدابلاد الثقافة المحلية وتريد الهيمنة كما أنّها تنزل الثقافات المحلية وأهلها منزلة دونية في ترتيبات المواطنة ، ومن ناحة أخر ى فإن الكنيسة والمستعمرالإنجليزي مثّلا دور المخلص الذي جاء بالتعليم الحديث ، وبالتطبيب الحديث ، وبالدواء الناجع ، والغذاء النافع لسكان هذه المناطق . وفي إطار هذه الوصفة جاء الاستعمار متحالفاً مع الكنيسةبمدارسه وبلسانه وا بجديته وكتبه وسبل كسب عيشه على الأخص وسط النخبة ، وكأنه جاء ليسلح الثقافات المحلية بأسلحة العصر ضد الثقافة الإسلامية ،ويعطيها حصانة وممانعة مما ر آه خطرا يتهددها ، أما غرب السودان فإنه يعكس كذلك نموذجاً لثقافة إسلامية تفاعلت وجمعت ما بين العناصر المحلية وثقافة غرب إفريقيا الوار دة من المغرب العربي. ومثل طريق الحج طريق التمكين لهذه الثقافة حيث كل الحجاج المسلمو ن يأتون من تمبكتو وما جاورها ثم يمرون بكانو ثم بأرض تشاد الحالية عبر هضبة أبشي ثم إلى دارفور ثم ينتشرون في السودان . وكانت قوافل الحج تمثل حراكاً سكانياً كأنها مدن مهاجر ة فيها الأمراء وقواد الجيش والفقهاء والنساك والنساخ والفعيلة وأهل الصناعات والتجار وطالبوا المغامرة وكسب العيش والصوفية ، فكانت مدناً متحركة وطنت الفقه المالكي والطريقة التيجانية وكثير اً من ثقافات ما يسمى بالإسلام الأسود المختلط بالسحر والتعاويذ في هذه المنطقة . وعلى تباين الخريطة الثقافية للسودان إلا أن مناطق شمال السودان كانت تمثل مراكز الإشعاع الثقافي بما فيها من مسايد ومساجد كما صورها و أبرزها كتاب طبقات ودضيف الله .

ولكن هذا الرصيد في الخدمة الثقافية والتواصل الثقافي لم يشفع لأهل الشمال عد أهل الجنوب و الغرب والشرق إذ نظروا إليه وكأنه يمثل استعلاء ثقافيا وأقصاء لما خلطوا بين مشاكلهم المستعصية ، وما في حياتهم من الفقر والعوز

والحاجة وخيبات الأمل ، وماجنته عليهم جغرافيتهم ، وأسقطوا كل ذلك على قضايا الهوية والتشكل الثقافيوخر ّ جوا منها أيدولوجية كراهية ومجابهة مع الشمال أحيانا من الناحية العرقية ، ومع الثقافة الإسلامية العربية من الناحية الثقافية والحضارية كما انتهوا بها إلى مشروع سياسي يطال قضايا السلطة والثروة وجعلوا من الشمال حينا مستعمرا وحينا مستعليا مما شكل المأزومية الحاضرة .

الخريطة الثقافية والدينية للسودان:

ماتزال بنية السودان تقوم على الولاءات الأولية التي أساسها القبيلة والعشيرة وا ٍن خفف التدين من حدة رابط القبيلة والعشيرة . ويتكون أهل السودان من قبائل الوسط والشمال التي استحكم فيها اللسان العربي ، والانتماء الإسلامي ، ولكن أيضا فإن للسودان أكثر من 126 قبيلة مشتركة مع دول جواره ، فمثلا مع مصر توجد القبائل النوبية والبشاريون والعبابدة ، ومع ارتريا توجد المجموعات البجاوية ، ومع إثيوبيا توجد مجموعة بني شنقول كالوطاويط والقمز والبرتي والأدوك والأنواك ، وتوجد مع جمهورية شاد أكثر من 26 قبيلة مشتركة وحينما يدخل أبناء العمومة إلى السودان مثل الزغاوة والرزيقات والمحاميد والمساليت والصليحاب يصبحون تلقائيا سودانيين وحينما يعودون إلى شاد يكونون شاديين، ولايقل تعداد القبائل المشتركة عن العشرة ملايين سوداني يتحركون بعلم الدولة أو دون علمها بالجنسية المزدوجة والممنوحة عرفا، وحتى إن لم يتم تقنينها بشكل رسمي وكذلك هناك سودانيو ما بعد القبائل المشتركة كالهوسا والفلاني والكناري من شعوب غرب إفريقيا والتي جاءت في هجرات متتالية إما طلبا للحج أو لأسباب اقتصادية ثم توطنت في السودان ولايقل حجمها عن خمسة ملايين ، وكل هذه الجماعات وطنت لغاتها وموروثاتها وثقافاتها حيث تتكلم بلهجاتها وتتزوج وفق عاداتها

وتقاليدها وتتدين حسب مفهومها وبالطبع فإنها كشأن كل البشر تتأثر بمحيطها وبحركة الثقافة العالمية .

هذا الوضع أضفى على السودان خصوصيات ثقافية وسياسية بل إن أحد حكام الولايات السودانية تمت الإطاحة به حينما اثنى في لقاء له مع الجماعات الإثنية التي تنحدر جذورها من غرب إفريقيا ، علىتدينهم مما هيج القبائل الأخر ى ذات الجذور السودانية الإثيوبية والتي تر ى نفسها هي أصل سكان المنطقة .

وهذه الخريطة العرقية سهلت من مهمة النزعات الشعوبية ؛ لأن هذه القبائل بجنسيتها المزدوجة وولاءاتها المزدوجة وهويتها المزدوجة تصبح عرضة لتنزلات سياسات دول الجوار ، وبما في هذه السياسات من أهداف ومرام ، قد لا تتفق مع سياسات الدولة السودانية، مما يؤدي إلى الصراعات التيوا ٍن جاءت لاسباب داخلية ، إلا أن المحركات الخارجية تزيد من شدتها على غرار ما حدث في دارفور وجنوب السودان وشرقه.

ومع أن السودانيين يتميزون بالتسامح الديني إلا أنه في التاريخ افتقدت الثورة المهدية هذا التسامح وأرادت أن تنمط السودانيين على منظومة دينية واحدة . ومع أنها فشلت إلا أن قدرا كبيرا من السودانيين ما يزالون يترسمون خطى الثورة المهدية ، وكذلك فإن الجوار الثقافي أدى إلى خريطة دينية إسلامية متباينة ففي غرب السودان اشتد ساعد الطريقة الصوفية التجانية نسبة لتواصلها مع غرب إفريقيا ، وفي شمال السودان ووسطه برزت طرق صوفية كالختمية المنسوبة إلى المراغنة ،و السمانية المنسوبة إلى الشيخ أحمد الطيب البشير ، والقادرية براياتها المختلفة. كما برز في الوسط ثقافة معهد امدرمان العلمي والتي أساسها الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية ولعل ثقافة المعهد العلمي أصبحت هي الثقافة المعيارية للتدين السوداني . وشكلت حتى مزاج الدولة الديني ومؤسساتها الرسمية لأنه من

رحم المعهد العلمي خرج منهج الثقافة الإسلامية لبخت الرضا ولجامعة أمدرمان الإسلامية ومن رحم هذه المؤسسة خرج الذين يديرون الحياة الدينية وما فيها من مساجد وزوايا ومدارس وعقودات نكاح وإرث ومع أن فقه المحاكم في السودان مأخوذ من الفقه الحنفي نسبة لارتباط السودان من الناحية التاريخية بمصر بالدولة العثمانية ، إلا أنه من الناحية الاجتماعية فإن الفقه المالكي والمزاج الصوفي يغلب على السودانيين .

ولكن هذه الثقافة السودانية المتدينة تعيش في جوار ثقافات لا دينية حيث تحيط بها المعتقدات الإفريقية ،والطقوس الإفريقية شرقا وجنوبا ، مما أوجد تعقيدات وأحيانا صدامات ، ومفارقات بين ثقافة المحارم ، والثقافات الإفريقية التي تبيح للأب أن يتزوج نساء آبائه ، وتبيح الخمر والتواصل الجنسي ولها رؤاها وطقوسها المختلفة ، ولعل صيحات تطبيق الشريعة الإسلامية في مجتمعات متعددة الثقافات والتصورات أدت إلى صيحات مضادة ، ومجابهات شكلت مأزومية السودان .

ولكن هذه المأزومية وإن كانت وليدة الجغرافيا الثقافية إلا أن دخول عوامل جديدة زاد من تعقيد هذه الوضعية الثقافية ،وأهم الطوارىء على النادي الثقافي السوداني طارىء الكنيسة فحتى عام 1913م لم يكن هناك مجتمع مسيحي سوداني ، لكن اليوم أصبح يؤم النادي الكنسي أكثر من مليوني سوداني، وجاء هذا النجاح لأن الكنيسة ارتبطت بالحداثة والنجاح في شؤون الدنيا ولاشيء ينجح كالنجاح في شؤون الحياة ، وجاء معظم قادة القبائل الإفريقية غير المسلمة من نادي الكنيسة ، ونجح النادي الكنسي السوداني في خلق عقلية قلقة متوجسة للثقافة الإسلامية بل كارهة ومعادية لها مما زاد من مأزومية المجتمع السوداني ، وأدت هذه المأزومية في النهاية إلى الطلاق ما بين شمال السودان وجنوبه وإلى توترات عرقية

واجتماعية وسياسية وشبه قطيعة ما بين الحكومة السودانية والدول الغربية ، كما أن كثيراً من السودانيين المحبطين في أوضاعهم الاقتصادية أسقطوا إحباطاتهم على ما أسموه (مركزية الثقافة العربية الإسلامية)وحملوها مسؤولية تهميشهم و أنهم أصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة باعتبار المرجعيات الثقافية ولعل أيضا الصمت العالمي لبعض دعاة الثقافة الإسلامية زاد من حدة الصراع كما دخلت الحركات السلفية على هذا النادي المأزوم بأحكام وأسقف إيمانية ومطلوبات عقدية لا تتفق لا مع المزاج الديني التقليدي ولا مع واقع الثقافة الإسلامية المأزوم ، مما أضفى مزيدا من التعقيد ما بين خطاب ديني متشدد ومزاج ديني متصالح ومجتمعات لاتعرف التدين أصلاً ، ولا تعرف وجوده ولاتعرف مطلوباته.

وجاءت مطلوبات العودة للشريعة والدستور الإسلامي في وسط ثقافي طغت عليه من الناحية الفنية مثلا الثقافة العولمية التي أعلتمن مقامات الحب والطر ب والرقص وما يعرف بالفنون الجميلة، وقد دخل الفن على قلوب الكثيرين وشكل وجدانهم وكان لذلك صداه وصداماته مع الثقافة الدينية المتشددة التي لا تعترف بالموسيقى والغناء والتماثيل وغيرها من ضروب الفن.

ومع ذلك فإن الغلبة لحركة الثقافة الإسلامية العربية حيث ساد اللسان العربي ، و أصبحت كثير من القبائل ثنائية اللغة ، بل ربما أصبحت العربية هي لغتها الأولى، ولغة أمها هي اللغة الثنائية وحتى جنوب السودان والذي فيه أكثر من 80 لغة اصبحت العربية هي لغة التواصل بين مختلف المكونات والقبائل ، وعلى الرغم من أن الإنجليزية هي اللغة الرسمية إلا أن النخب والحكام يلجأون إلى التواصل مع العامة بالعربية ، التي هي لغة التواصل في الجنوب .

بل إن الموقع الجغرافي للسودان والمزاج الديني لأهل السودان أصبح كأنه مركز إرسال ثقافي لبقية دول الجوار فعبرت المفاهيم الدينية السودانية والطرق

الصوفية السودانية والرؤ ى الدينية السودانية إلى معظم دول الجوار ، (إثيوبيا – شاد – ارتريا) ومثلما استقبل السودان الحركات الدينية من خارجه كالسلفية من نجد ، وشبه الجزيرة العربية والإخوان المسلمون من مصر والتجانية من غرب إفريقيا إلا أن المزاج السوداني والرحم السوداني أعادا تشكيل هذه المباديء وأعاد إرسالها إلىدول الجوار وا ٍلى مختلف نواحي السودان وقبل نحو 40 عاماً كان في السودان مثلا مالايزيد عن بضع عشرات من المساجد للجماعات السلفية ولكن اليوم توجد لهذه الجماعات قرابة الألفي مسجد، ولكن الثقافة الدينية السلفية في هذه المساجد اضطرت إلى أن تتصالح مع من حولها ، وتخفف من خطابها ولهجاتها ولذلك نجد قادة الجماعات السلفية في تواصل مع قادة الصوفية في بيئة يطغى عليها المنهج الصوفي.

وكذلك تصالحت الثقافة الدينية السودانية مع كلية الفنون الجميلة ومع الموسيقى ومع الغناء بل إن المديح السوداني والنشيد الديني السوداني أخذ ينحو في مبناه ومساقاته مساقات الغناء والفن، كما أن المتدينيين السودانيين زاو جوا بين أزيائهم التقليدية ومطلوبات الزينة الغربية وأصبح الزي الأفرنجي سائدا بين كثير من قطاعات المتدينيين.

مستقبل الثقافة في السودان :

تفيد القراءات أن حركة الثقافة العربية الإسلامية يزداد عودها و يتمدد ويمكن أخذ ذلك من النمو المتزايد في عدد المساجد ففي الخرطوم مثلا التي كانت تضم ربما أقل من ألف مسجد قبل ثلاثين عاما فإن المساجد تضاعفت اليوم بأكثر من نسبة نمو السكان وتضاعفهم ، كما برزت مؤسسات متعددة في الثقافة العربية الإسلامية كجامعة القرآن الكريم و جامعة إفريقيا العالمية ، كما أن لغة التدريس أصبحت في أكثر من ثلاثين جامعة سودانية هي اللغة العربية ، كما تعرب إلى

حد كبير جنوب السودان ، وتعربت مناطق بالكامل في جبال النوبا والأنقسنا وغيرها ، كما ازداد تواصل السودان مع الدول الخليجية والعربية ، ويكفي أن هناك قرابة العشر رحلات يوميا مع الخليج وحده ولم تكن هذه الرحلات قبل ثلاثين عاما تزيد عن الرحلة الواحدة يوميا.

ولكن مع ازدياد حركة الثقافة العربية الإسلامية وازدياد تأثيرات السودان على جيرانه عبر التجارة والحراك السكاني والتواصل فإن ذلك يجعل من السودان قطراً غير مرغوب فيه، وعلى الأخص من الكنيسة العالمية والمجموعات اليهودية الناشطة في السياسة والثقافة والنظام الدولي ، ويمكن قراءة قلق فرنسا واهتمامها بمستقبل دارفور في هذا الجانب على مخاوفها من أن تستعرب تشاد بالكامل ، كما حدث في دارفور ، وأن يتمدد الاستعراب إلى النيجر ومالي وبقية الفضاء الفرنسي في إفريقيا خصوصا أن هناك حراكاً سكانياً ما بين مثلث النيجر ومالي وتشاد ودارفور ، ومن الغريب أن الجفاف والتصحر أديا إلى حراك سكاني واسع في منطقة الساحل ، واتجهت القبائل الرعوية في محورين بعضها إلى المدن كما هو الحال في تمبكتو وانجمينا ، مما أدى إلى ازدياد حركة التعريب الاجتماعي في هذه المدن نتيجة لتوطن القبائل العربية في مدن الساحل ، وازدياد دورها ونفوذها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ، وقد ظلت طيلة فترة الاستعمار في مضاربها ومع مواشيها وإبلها بعيدا عن تأثيرات المد الفرنسي النخبوي ولكنها برزت فجأة كتكتل سكاني نجح في الحفاظ على هويته وثقافته ويريد أن يوطنها داخل حزام التمدن السكاني ، ومن ناحية ثانية هاجرت هذه القبائل إلى دارفور وسببت تصدعا اجتماعيا وزادت من حدة الصراع على الموارد ووجدت نفسها حليفا للحكومة في وجه حركات التمرد والثورة ، مما أدى إلى مزيد من توطن الثقافة العربية الإسلامية في دارفور التي هي أصلا إسلامية وإن لم تلتق هي مع العروبة

العرقية ، وأدى مجيء هذه القبائل إلى بروز العروبة كظاهرة شعوبية في وجه الإفريقية أو حركة المواطنين الذين أذاهم هذا التحرك السكاني لأنه ضيّق عليهم في كسبهم ، وأصبحت هذه القبائل في صراع الموارد الشحيحة ، مما قاد إلى تعقيدات في دارفور في نظام ملكية الأرض أو الحواكير، الذي هو أشبه بسيادة الدولة على حدودها . ووجدت كثير من القبائل أن نظام الحواكير قد انهار .و أضحى القادمون شركاء في السيادة والسلطة والثروة مع القبائل المتجذرة في المنطقة مما زاد في صراع دارفور ، حيث كان هناك أصلا الصراع بين الرعاة والزراع حول الموارد الشحيحة . وكبر الصراع وتضخم مع ازدياد تفوق السلاح الناري القادم من جنوب السودان وشاد وليبيا وإفريقيا الوسطى وتعقد هذا الصراع مع وجود هجرات الرعاة القادمين من مثلث النيجر وشاد ومالي و الدول المجاورة ،وازداد الصراع تعقيداً بالتوظيف السياسي لهذا الصراع وما حدث من إسقاط من هذا الصراع على حركة الثقافة العربية الإسلامية وتحوير كل مسببات هذا الصراع وتجييره ضد المركز ، وتحميل المركز بالتالي مسئولية القتال ، وصراعات الثروة والسلطة وربطها بقضية الانتماء الثقافي والهوية دون أن يكون هناك رابط وجيه باستثناء توظيف وتحريك هذه التناقضات في وجه مدرسة الثقافة العربية الإسلامية وبالتالي ، فإن قضية التنوع والخصوصيات الثقافية بدأت تستخدم كترياق لإضعاف المركز ولكسب الخارج والاستقواء بالخارج والاستقواء بالنظام الدولي وتنزلات هذا النظام وجماعات الضغط ومنظمات المجتمع المدني والجمعيات الطوعية وحركات المرأة والجندرة وحقوق الإنسان واستخدامها كلها كأدوات ضد المركز الذي أصبح يمثل الاستعلاء الثقافي ويمثل الخطر على الثقافات المحلية ، علما بأن المركز ذاته مواجه بمد الثقافة العولمية والثقافية الإنسانية وبقضايا الحداثة والتغريب والمركز نفسه ما عاد فيه مايسمىبالنقاء العرقي فبسبب الحراك السكاني والتواصل الجغرافي أصبحت

الخرطوم تشبه السودان وتموج بمختلف المجموعات العرقية ، بل ربما أصبحت المجموعات العرقية من دارفور وغرب إفريقيا وشرق السودان وماوراءه وجبال النوبة لايقل في وزنها السكاني عن المجموعات السكانية الخرطومية أو المنتمية إلى الوسط.

ومهما يكن فإن مستقبل الثقافة في السودان سيرتبط بالثقافة العربية الإسلامية ، وستظل تمثل الخط الصاعد أو النامي ولكن سيكون لذلك تكلفة سياسية وأمنية كبيرة لأن ازدياد خط الثقافة الإسلامية العربية سيقابل بمجابهة وتوترات محلية وا ٍقليمية ودولية وسيؤدي إلى جدلية السياسي في وجه الثقافي .

وسيتم سلقاط القضايا المتعلقة بالفيدرالية والهوية و أوضاع الأقليات ، في إطار هيمنة الثقافة العربية ، على الأنظمة الظالمة في توزيع السلطة والثروة والمركز والهامش ولذلك سيزداد دوليا وا ٍقليميا أهمية كل من يرفع السلاح ضد الدولة بحجة التهميش أو الاستعلاء العرقي والثقافي ، ويجد التشجيع والمؤازرة من مؤسسات النظام الدولي المستفيدة من توثيق قضايا السلطة والهوية والانتماء؛ لإضعاف الدولة السودانية ، وفي الحقيقة تبدو الدولة السودانية غير مرغوب فيها من جانب إسرائيل وبعض مكونات النظام الدولي لأسباب تتعلق بالمستقبل السياسي في المنطقة ومستقبل اسرائيل ولذلك سيتم توظيف كل التناقضات السودانية والتنوع السوداني في سبيل إضعاف الكيان السياسي السوداني واستتباعه والحاقه بالغرب .

وفي الحقيقة فإن الكيان السوداني الذي لايبيح تعاطي الخمور ولايعترف بإسرائيل ويجعل العربية أداة للتعليم والتواصل ، يبدو أكّ ه يسير ضد حركة الثقافة العالمية ، ولذلك سيصبح لهذا الكيان معارك متعددة اقتصادية سياسية واجتماعية ودينية وعلى مختلف الصعد والأنحاء .. يتداخل فيها الكنسي مع الاقتصادي

والاقتصادي مع ضغوط الصهيونية العالمية ، وضغوط الصهيونية العالمية مع حركات الزنوجة الرافضة للتدين ، وحركة الثقافة العربية الإسلامية والموصولة بمؤسسات النظام الدولي .

وستظهر بؤر هذا التوتر في مناطق التماس أو التداخل الحدودي ما بين الشمال والجنوب وهي الحدود الأوسع لأن طولها حوالي 1900 كيلومتر أو 42 % سكان الجنوب يتركزون في هذه المنطقة . وحوالي ربع سكان السودان يعيشون في هذه المنطقة .بل ثاني أكبر مدينة في السودان مدينة نيالا تتفتح شمالاً وجنوبا على 14 مدينة متوسطة ، مثل كوستي والدلنج وكادقلي والدمازين وسنجة وأويل والرنك إلى آخره . وهذه الحدود من الناحية الواقعية ستكون موجودة فقط على الورقة لكن من الناحية العملية ستظل تموج بالحراك الذي ستتخلله صراعات الموارد وصراعات الهامش والمركز . وهذه هي المناطق الأكثر ثراء في السودان لأنها مناطق الماء والكلأ والزراعة والبترول ، ولذلك سيتجدد فيها سفك الدماء وبدلا من أن يؤدي التو اصل الثقافي والحضاري إلى مزيد من الوئام وحسن الصلات والتداخل الاجتماعي والسلام ، إلا أن القراءة ترسم إلى أن تصبح هذه الحدود حدوداً دامية معبأة بثقافة الكراهية واستخدام التنوع كترياق مضاد للوحدة الثقافية والانتماء لأهل القبلة في ظل مطلوبات النظام الدولي الجديد . الذي يسعى بها لتنميط الشعوب على ما يسمى بمطلوبات الثقافة العالمية بوجهها المادي ولعل هذا هو قدر الثقافة والسياسة في السودان والله أعلم .

نتائج الدراسة :

توصلت الدراسة لعدد من النتائج ، منها :-

1- إن السودان يسكنه شعب هجين ذو ثقافات متباينة ، وحظوظ من التمدن والحضارة متفاوتة، فإذا نظرنا في منطقة شمال السودان على سبيل المثال نلاحظ أنه أكثر تمدنا من الوسط والشرق والغرب والجنوب.
2- هذه الحضارات تأثرت بالديانات الإبراهيمية(اليهودية، والمسيحية ،والإسلام)،كما كانت بحيرة لغوية تفاعلت فيها اللغات البجاوية والنوبية واليونانية والرومانية والعربية ، كما أن أهلها أسلموا قبل أن يستعربوا.
3- ماتزال بنية السودان تقوم على الولاءات الأولية التي أساسها القبيلة والعشيرة وا ٍن خفف التدين من حدة رابط القبيلة والعشيرة . ويتكون أهل السودان من قبائل الوسط والشمال التي استحكم فيها اللسان العربي ، والانتماء الإسلامي.
4- الخريطة العرقية سهلت من مهمة النزعات الشعوبية ؛ لأن هذه القبائل بجنسيتها المزدوجة وولاءاتها المزدوجة وهويتها المزدوجة تصبح عرضة لتنزلات سياسات دول الجوار ، وبما في هذه السياسات من أهداف ومرام ، قد لا تتفق مع سياسات الدولة السودانية، مما يؤدي إلى الصراعات التي وا ٍن جاءت لاسباب داخلية ، إلا أن المحركات الخارجية تزيد من شدتها على غرار ما حدث في دارفور وجنوب السودان وشرقه.
5- الثقافة السودانية المتدينة تعيش في جوار ثقافات لا دينية حيث تحيط بها المعتقدات الإفريقية ، والطقوس الإفريقية شرقا وجنوبا ، مما أوجد تعقيدات وأحيانا صدامات .
6- تفيد القراءات أن حركة الثقافة العربية الإسلامية يزداد عودها ويتمدد ويمكن أخذ ذلك من النمو المتزايد

7- وستظهر بؤر التوتر في مناطق التماس أو التداخل الحدودي ما بين الشمال والجنوب وهي الحدود الأوسع لأن طولها حوالي 1900 كيلومتر أو 42 % سكان الجنوب يتركزون في هذه المنطقة

ثبت المراجع والمصادر:

1- أحمد بن الحاج علي أبوعلي ، مخطوط كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة، تحقيق الشاطر بصيلي عبدالجليل ، الجمهورية العربية المتحدة (د. ت).

2- أحمد الحفناوي ، سودان وادي النيل في ظل الإسلام ، دار المعارف ، 1982م.

3- أحمد محمد أحمد جلي ، طائفة الختمية أصولها التاريخية وأهم تعاليمها ، ط أولى ، بيروت، دار خضر للطباعة والنشر 1992م.

4- التجاني عامر ، السلالات العربية السودانية في النيل الأبيض ط ثانية ، دار الفكر ، الدار السودانية للكتب 1961م .

5- ب . م . هولت ، الأولياء والصالحون والإسلام في السودان ، ترجمة هنري رياض والجنيد علي عمر ، ط ثالثة ، بيروت ، دار الجيل 1986

6- جعفر محمد علي بخيت ، الإدارة البريطانية والحركة الوطنية في السودان 1919 – 1939 –ترجمة هنري رياض ، ط أولى ، بيروت ، دار الثقافة ، الخرطوم ، مكتبة خليفة عطية 1972م .

7- ج. فانتيني ، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة، والسودان الحديث، الخرطوم 1978م.

8- حسن أبشر الطيب ، في الأدب السوداني ، ط أولى ، الدار السودانية ، دار الفكر 1961م.

9- حسن الفاتح قريب الله ، التصوف في السودان إلى نهاية عصر الفونج، ط أولى ، جامعة الخرطوم ، كلية الدراسات العليا ، بحث رقم (22) ، 1987م.

10- حسن مكي محمد أحمد – حركة الأخوان المسلمين في السودان 1944- 1969 ط رابعة، دار البلد 1988م.

11- حسنمكي محمد أحمد ، الثقافة السنارية المغز ى والمضمون ، بمناسبة مرور 500 عام هجري على قيام سلطنة سنار الإسلامية ، جامعة إفريقيا العالمية ، مركز البحوث والترجمة، إصدارة رقم (15) د. ت .

12- شوقي الجمل ، تاريخ سودان وادي النيل حضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور للوقت الحاضر ، الجزء الأول ، مكتبة الأنجلز المصرية 1969م.

13- عبدالعزيز أمين عبدالمجيد ، التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسية التي قامت عليها ، 3 أجزاء ، القاهرة ، المطبعة الأميرية 1949

14- عبده بدوي ، الشعر الحديث في السودان 1840- 1953 (د. ت)

15- عون الشريف قاسم ، الثقافة العربية واثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر ط أولي 1972م .
16- محمد إبراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم ط ثانية ، بيروت 1979م.
17- محمد إبراهيم أبوسليم، دراسات في الشخصية السودانية، دار جامعة الخرطوم للنشر 1979م.
18- محمد النور بن ضيف الله ، كتاب الطبقات ، تحقيق يوسف فضل حسن ، ط أولى ، جامعة الخرطوم 1971م.
19- محمد سعيد القدال ، تاريخ السودان الحديث 1820- 1955م (د. ت).
20- محمد بن عمر التونسي ، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، تحقيق خليل محمود عساكر وآخرون القاهرة، 1965م .
21-محمد عوض محمد السودان الشمالي سكانه وقبائله ، ط ثانية ، القاهرة .1956
22- مكي شبيكة ، السودان عبر القرون ، ط ثانية ، بيروت دار الثقافة (د. ت)
23- يوسف فضل حسن ، الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في سودان وادي النيل ، مؤتمر الإسلام في السودان الخرطوم ، دار الفكر ، (د. ت)
24- يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان ، ج 1 ، ط أولى ، دار جامعة الخرطوم 1975م .
25- H.A. McMichael . History of the Arabs in Sudan 1965
26- R.E.Slatin , fire and sward in the Sudan London 1896
27- J.S. Trimingham , Islam in the Sudan. London 1965
28- قيصر موسى الزين ، الحركة التاريخية ، المدينة والدين) في إفريقيا الشرقية حالة الخرطوم الكبر ى 1945- 1990 دكتوراه جامعة الخرطوم 1990م